المذهب بالسلفية بدعة لا يقرها اتباع السلف

للعلامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي

الفرق بين التمذهب والاتباع

حصيلة ما قد عرفناه في البابين الماضيين، أن اتباع السلف الصالح، وترسم خطاهم في فهم كل من القرآن والسنة والعمل بهما، واجب على كل مسلم بمقتضى كونه مسلماً ملتزماً بكتاب الله وهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله أمر عباده بإطاعة رسوله، فقال: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنهُ فَانتَهُوا). وأمر رسول الله الناس باتباع سنته سنة خلفائه الراشدين المهديين، واقتفاء سيرة الصالحين من أصحاب القرون الثلاثة من بعده. فقال: (وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وستة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ)، وقال أيضاً: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم). ولا معنى لإعلان هذه الخيرية إلا الأمر باتباعهم والاقتداء بهم.

ولكنا عرفنا أيضاً أن التمذهب بمذهب جديد اسمه "السلفية" يقوم على عصبية الانتماء شيء آخر لا شأن له بالاتباع المطلوب، بل يتفق لا معه كما قد رأينا في كثير من الجزئيات والتفاصيل.

ولكن هل من فرق بين التمذهب بمذهب يسمى "السلفية"، واتباع السلف؟ وما هو هذا الفرق إن كان موجوداً؟ وأقول: إن الفرق بينهما، يشبه الفرق الذي تراه بين قولنا: "محمديين"، وقولنا "مسلمين" .

ومن المعلوم أن إطلاق كلمة "محمديين" على المسلمين، أمر يلح ويصر عليه طائفة كبيرة من الباحثين والمستشرقين الأجانب. ومن المعلوم أيضاً أنها تسمية مرفوضة في ميزان الرؤية الإسلامية، ومن خلال الواقع الذي يعيشه المسلمون الصادقون مع إسلامهم.

إذ أن كلمة "محمديين" هذه تعبر عن انتماء المسلمين إلى شخص محمد عليه الصلاة والسلام، والتفاهم حول ذاته، وتعصبهم لأفكاره الخاصة به.

أما كلمة "مسلمين" فتعبير عن الدينونة لسلطان الله وحكمه، وقبولهم لكل ما جاءهم منه عن طريق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

فالتفافهم حول رسول الله صلى الله عليه وسلم التفاف أخذ من الله؛ وطاعتهم له، ليست في حقيقتها إلا طاعة لله، وليس حبهم له إلا لأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم

فهذا الفرق الذي تراه واضحاً بين كلمتي "محمديين" و"مسلمين" هو بعينه الفرق الذي بوسعك أن تراه جلياً، بين التمذهب بالسلفية واتباع السلف.

التمذهب بالسلفية، يعني أن للسلف مذهباً خاصاً بهم، يعبر عن شخصيتهم، وكينونتهم الجماعية؛ ثم إنه يعني أن هؤلاء الذين دخلوا في هذا المذهب، هم، من دون سائر المسلمين، الذين يمثلون حقيقة الإسلام وينهضون بحقه! فالإسلام يغدوا، من خلال هذا التصور والفهم، هو التابع لهذا المذهب وأصحابه يسير ورائه أنَّى ساروا ويتبنى من المبادئ والأحكام والآداب ما يتبنونه ويرونه، ويحارب من ذلك كله ما يحاربونه!

أما اتباع السلف، فإنما يعني تكريم أولئك الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكريمهم من أصحاب تلك القرون الثلاثة الأولى والذين أخلصوا دينهم لله واعتصموا ــصادقينــ بحبل الله؛ كما يعني اتباعهم في فهم الإسلام والاقتداء بهم في المنهج الذي ترسموه في فهم نصوص كل من القرآن والسنة واستنباط المبادئ والأحكام.

فالإسلام ــفي الحقيقةــ هو المتَّبع، ومنهجه في الدراية والفهم هو المحور والأساس.

وإنما السلف الصالح الذين أخلصوا دينهم لله هم الأدلّاء والهداة في الطريق إلى ذلك الموئل والأساس؛ وإنما ارتفعت قيمة من ارتفعت قيمته منهم، وهبطت درجة من هبطت درجته منهم فخرجوا من دائرة السلف الصالح وإن عاشوا في عصورهم، بمقتضى ميزان هذا الدين ومنهجه.

فهو الذي رفع منهم أناساً ووضع آخرين كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

هذا هو الفرق بين التمذهب بمذهب يسمى السلفيّة، واتّباع السلف الصالح تحقيقاً لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن الواضح أن الثاني من جوهر الدين ولبه، وأساس من أسس السنة المطهرة التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الأول ابتداع لشيء لم يأذن به الله، وتخيّل لأمر لم يكن له أي وجود في التاريخ.

فإن العصور الثلاثة المباركة الأولى في صدر الإسلام، لم تشهد ظهور مذهب في قلب الأمة الإسلامية اسمه المذهب السلفي أو مذهب السلف، له مقوماته ومميزاته التي تفصله وتميزه عن سائر المسلمين، وتجعل لهم مرتبة يتبوؤها في العلو والشرف من دون سائر الذين لم يكن لهم شرف الانتماء إلى هذا المذهب.

وإنما كانت ثمة مزية واحدة لا تدانيها ولا تنافسها أي مزية أخرى، هي مزية الاصطباغ عن صدق بهذا الدين، ثم فهمه والعمل به تطبيقاً للمنهج والميزان اللذين تم بيانهما والحديث عنهما في البابين الماضيين.

فكل من تشرف بهذه المزية تبوأ بحق تلك المرتبة العليا في الدنيا والآخرة.

وكان بذلك فرداً بل عضواً عاملاً في جماعة الأمة الإسلامية الواحدة لا يحجزه عنهم زمان أو مكان.

وكل من لم يكن له شرف هذه المزية بأن خرج على الإسلام أو شذ عن شيءٍ من أصوله ومنهجه في الدراية والفهم فقد قذفه شذوذه هذه وراء سور الجماعة الإسلامية.

فهو مقطوع النسب عنها، دون أن يشبع لشذوذه زمان متقدم أو مكان متميز أو قرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو انغماس في عصر السلف وقد علمنا أن عصر السلف ضم فرقاً وجماعات شتى شذو عن الميزان المحكم والمنهج المتبع، فلم تغنهم سلفيتهم من الله شيئاً وكانوا شراً من كثير من المبتدعة الذين ظهروا في العصور المتأخرة من بعد.

إذاً، فإن من السهل على كل ذي بصيره، أن يعلم أن الإطار الذي يحدد دائرة الجماعة الإسلامية المستقيمة على صراط الله عز وجل، هو الانضباط بالقواعد والأصول المتفق عليها في فهم النصوص العربية عامة ونصوص القرآن والسنة خاصة، بعد التقيد بمنهج المعرفة في التفريق بين العقائد والأفكار الباطلة الزائفة والعقيدة السليمة الصحيحة التي تنهض على دعائم المنطق والعلم.

فمن التزم بتلك القواعد التي تم الاتفاق عليها واجتهد فيما وقع الاجتهاد فيه منها، فهو واحد ممن دخلوا بحمد الله في دائرة الجماعة الإسلامية، أيّاً كان عصره الذي عاش فيه وإنما لسلف الصالح عليهم مزية واحدة، هي ما كانوا يتمتعون به _بسبب قربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم_ من صفاء الرؤية إلى مبادئ الإسلام ونصوص القرآن والسنة، فكانوا

بحق أساتذةً لمن بعدهم في كيفية الالتزام بالمنهج وكيفية تطبيق القواعد المرسومة في تفسير النصوص.

شأنهم في ذلك كشأن الرعيل الأول من العرب الذين كانوا بحق أساتذةً لمن بعدهم من علماء العربية وقواعدها في فهم تلك القواعد تطبيقها وحدود العمل بها.

ومن هنا يتجلى الفرق بين التمذهب بمذهب يسمى اليوم بالسلفية، وبين اتباع ذلك الرعيل الأول الذين كانوا بحق أساتذةً لمن بعدهم في كيفية فهم الدين وفي تبصيرهم في المنهج الذي ينبغي أن يحكموه في فهمه وتطبيقه.

فالأول وهم مبتدعون لم يكن له أي وجود في عصر السلف الصالح رضوان الله عليهم، والثاني واجب بإيجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعنى الذي أوضحناه وشرحناه.

ولو صح لهؤلاء الذين ابتدعوا هذا المذهب ثم نسبوا أنفسهم إليه، وجعلوا لأنفسهم به شارةً يمتازون بها عن سائر المسلمين، أقول: لو صح لهؤلاء، أن يستنبتوا لأنفسهم هذا المذهب من الواقع الإسلامي العام الذي كان يمر به عصر السلف، فإنه يصح من باب أولى لغيرهم أن يستنبتوا منهباً إسلامياً آخر من الواقع الذي كان يمر به عصر الخلفاء الراشدين، ثم ينسبوا أنفسهم إليه، فيقول عن أنفسهم: راشدين! وربما امتلكوا الحجة القاسية التي بوسعهم أن يغالبوا بها من يسمون أنفسهم: السلفيين.

ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين) ولم يقل: السلفيين، بل يصح لفريق ثالث أن يستخرج مذهباً ثالثاً من واقع عصر الصحابة، ثم ينتمي إليه، ويسمَّى كلُّ أفراد هذا الفريق صحابيين! ولن يعدم مبتدعو هذا المذهب أو ذاك، أن يجمعوا له المقومات الكافية لإبراز ذاتيته وشخصيته اللتين يمتاز بهما عن سائر المذاهب الأخرى، من اجتهادات وآراء في الاعتقاد والسلوك، كي تتحد بها معالمه وقوالبه، ويقوم بذلك الفارق _المبارك!_ بينه وبين ما عليه سائر المسلمين من عموم ما يشملهم وصف أهل السنة والجماعة. ولا شك أن أصحاب كلٍّ من هذه المذاهب ، سيسفّه ويبدّع دعاة أو أصحاب المذاهب الأخرى، وسيجعل كلٌّ منهم من خلافاته الاجتهادية وآرائه التي يبرز شخصيته المذهبية بها، سلاحاً لمقاومة الأخرين ونسبتهم إلى الزغل والابتداع! ولا نشك في أن كلّ فريق محقّ فيما يتم به الفرق الأخرى، إذا كل منهم جانح، فيما هوفيه،

عن المنهج الإسلامي السديد الذي كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم، سواء الذين كانوا منهم في عصر الصحابة والخلافة الراشدة، أو الذين جاؤوا على أعقابهم من بعد.

فإنهم كانوا يختلفون بلا ريب، ولكنهم لم يقسموا أنفسهم شيعاً وأحزاباً، على قدر الآراء والمذاهب التي اختلفوا إليها.

إنا كان يجمعهم الخضوع للمنهج الواحد، فلا جرم أن خلافاتهم الاجتهادية ضمن سلطان هذا المنهج لم يكن ليفرقهم قدداً، بل سرعان ما يذوب أثره في ضرام الألفة الإسلامية الجامعة، ولذلك فإن لم نسمع أن صاحب أي اجتهاد المخالف أو نسب صاحبه إلى الجنوح والابتداع، ثم أخذ التي اختصّ بها مظهراً لشخصية مذهبية خاصة به وبمن انضم إلى رأيه، ثم أخذ ينتصر لمذهبه هذا من حيث يحارب الآراء والاجتهادات الأخرى وأصحابها. نعم لم نسمع أن صاحب أي اجتهاد منهم عمد إلى شيء من ذلك، دام الكل يتحرك داخل خط المنهج المرسوم للمعرفة ولتفسير النصوص.

فأما أولئك الذين شردوا عنه، كالفِرَق الجانحة عن دائرة أهل السنة والجماعة، فلا ريب أن جنوحهم هو الذي أقام الحواجز الكثيفة بينهم وبين عامة أهل السنة والجماعة، وفصلهم عن جسم الجماعة الإسلامية، فكانوا بذلك فرقاً مستقلة، ومذاهب ذات أهواء وعصبية وغلوفي الباطل، وكان بديلهم الوحيد عن ذلك المنهج الذي تمردوا عليه، العصبية للنفس والانتصار للذات.

ولا يسبقن الوهم إلى ذهنك، فتقول: ولكن ها هم السلف الصالحون قد اجتهدوا في الأحكام الفقهية، فأوصلتهم خلافاتهم الاجتهادية تلك إلى حيث فرقتهم في مذاهب فقهية شتى، أقلها المذاهب الفقهية المعروفة.

ذلك لأن هذه المذاهب لم تكن تعبر عن أكثر من جملة آراء اجتهادية وصل إليها أصحابها بعد البحث والنظر، فلم يكن لهم بد من حكم الشارع جل جلاله من العمل عليها والأخذ بها، أما صلة أصحاب هذه المذاهب بعضهم ببعض، فقد كانت على خير ما يرام .

وكانت تشملهم جميعاً دائرة الجماعة الإسلامية الواحدة، ويضمهم سلطان ذلك المنهج الواحد المعتمد لديهم جميعاً في الاجتهاد وتفسير النصوص.

ثم إن كلاً منهم كان عوناً للآخر في جهده الاجتهادي، وكان جميعهم يدرك جيداً أن كلاً منهم مكلف بالعمل بما أدى إليه اجتهاده .

فأين هذا الواقع التعاوني ممن يتخذون من جملة ما تبنوه من آرائهم وأفكارهم الاجتهادية في العقيدة أو السلوك عنواناً على شخصيتهم الإسلامية المتميزة عما عليه سائر المسلمين، ثم يجعلون من آرائهم تلك ما يشبه المتاريس والتحصينات مسلحةً، ليحاربوا من داخلها كل ما يخالفهم في الاجتهاد والرأي، مهما كانوا ملتزمين بالأصول والقواعد الاجتهادية المتفق عليها من قبل سائر علماء المسلمين وأئمتهم سلفاً وخلفاً! وقد عرضنا لك طائفةً كبيرة من المسائل الاجتهادية التي تحتمل أكثر من رأي في نطاق التمسك بكل من الكتاب والسنة، والتي اختلف السلف أنفسهم في كثير منها، ثم كيف عمد من يسمون أنفسهم اليوم بالسلفية إلى هذه المسائل فحصروا وجه الحق فيها في رأي وقول واحد، هو الرأي الذي طاب لهم أن يأخذوا به ثم جعلوا من رأيهم ذلك عنواناً على الدين الحق، وبرهان ضلالة وسفه لكل من خالفهم، دون أي الالتفات إلى الموازين والقواعد الأصولية التي يتقبل فيها أكثر من اجتهاد ورأي، ودون تقدير لاختلاف السلف أنفسهم في كثير منها!

إذاً فقد اتضح لك الفرق بين اتباع السلف الذي هو جزءٌ لا يتجزأ من آداب الفهم والسلوك الإسلامي، والتمذهب بالسلفية الذي هو شيء جديد وتصور طارئ على حقيقة المفهوم الإسلامي، والذي لا ينهض وجوده إلا على تقسيم المسلمين إلى فريقين.

ولكن ما الدليل التفصيلي على أن التمذهب بالسلفية شيء طارئ على المفهوم الإسلامي، وأنه من أجل ذلك بدعة لا تتفق مع اتباع السلف؟

هذا ما سنبينه الآن بتوفيق الله وعونه.

"الدليل على أن التمذهب بالسلفية بدعة "

متى ظهر التمذهب بالسلفية؟

من العلوم لنا جميعاً أن عصر السلف كان يضم فئات خارجة عن الملة من كتابيين وغيرهم. وكان يضم فرقاً وفئات تنتسب إلى الإسلام، ولكنها جانحة عم المنهج المجمع عليه والمعتمد من قبل عامة علماء المسلمين وأئمتهم في فهمه وتفسير نصوصه، لعوامل وأسباب مختلفة لسن الأن بصدد تحليلها وشرحها، فزجها هذا الجنوح في متاهات وضلالات شتى، وفرقها

أوزاعاً في سبل تلك الضلالات، فكان منها المعتزلة والمرجئة والخوارج وغيرها، ثم إنَّ كلاً من هذه الفرق انقسم على نفسه وتفرق إلى فرق ومذاهب شتى أكثرهم يكفر بعضهم بعضاً. وكان عصر السلف يحوي إلى جانب هذا الخليط، السواد الأعظم والأكثرية الساحقة، وهم المسلمون الذين احتكموا إلى الميزان الذي أخذوه من طريقه فهم رسول الله وصلى الله عليه وسلم وأصحابه للنصوص ومنهجهم في التفسير والتأويل والنظر والاجتهاد، فاجتمعت كلمتهم عليه وصالحوا، "وبتعبير أصح: وفَّقُوا " بين الرأي والنصوص على أساسه، فأطلق عليهم بحق لقب أهل السنة والجماعة. وليس لنا، في هذا المقام، من شأن بأولئك اللذين تاهوا وضلوا، وإن تفاوتوا في الانحراف والضلال.

وإنما يقتصر حديثنا على هذا السواد الأعظم الذي يسمى : أهل السنة والجماعة.

ترى ما هو مناط تشرفهم بهذا اللقب، وما هو السر الذي جعلهم دون غيرهم جماعة المسلمين التي نوّه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشاد بها وأمر باتباعها والالتفاف حولها في أحاديث كثيرة بلغت مبلغ التواتر المعنوي، وقد ذكرنا فيما مضى بعضاً منها؟ لقد كان مناط استحقاقهم لهذا اللقب التزامهم بمنهج المعرفة القائم على التنسيق الدقيق بين حكم العقل ودلالة النقل، "وهو التنسيق نبَّه إليه البيان القرآني وأرشد إليه وربى المسلمين الصادقين في إسلامهم على أساسه" ثم التزامهم بالقواعد العربية المعتمدة في تنسيق النصوص، ولقد كان لهم في فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لكتاب الله واجتهادات الصحابة في تفسيره وتأويله، خير مظهر تطبيقي لذلك كله.

إذن فلم يكن الحاجز الذي فصل ما بين أهل السنة والجماعة وبقية الفرق التائهة المتخاصمة، والذي أبرز وحدة هذه الجماعة وسيرها على صراط واحد لا اضطراب فيه ولا اعوجاج، أقول: لم يكن هذا الحاجز شعاراً مذهبياً رفعوه فوق رؤوسهم ثم تكتلوا من حوله فامتازوا به عن كل من لم ينضو معهم تحته، ألا وهو التمذهب بمذهب السلفية! بل لم يكن يخطر هذا الشعار منهم على بال.

كيف ولو عبروا عن كينونتهم الجماعية ووحدتهم المذهبية بهذا الشعار، إذن لدخل معهم في هذه الكينونة الجامعة سائر تلك الفرق الناجحة عن الحق الشاردة عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، إذا إنهم جميعاً مصبوغون بصبغة هذا الشعار سواء انتموا أم لم

ينتموا إليه. بل إنهم السلف أنفسهم لا المذهب الذي ينتمي إليهم، فهم بكل فئاتهم وأشتاتهم أصل هذا المذهب وجذوره، دون أي تفريق بين مهتد وزائغ وبين صالح وطالح! ولكن ما من عاقل إلا ويعلم أن لا أثر لهذا الشعار ولا التمذهب الذي يسود اليوم على أساسه، في أبرز وحدة الجماعة الإسلامية التي سميت بأهل السنة والجماعة وفي فصلها عن متاهات أهل الزيغ والضلال وإنما الذي أبرز طوق هذه الوحدة، منفصلة عن أصحاب تلك المتاهات، إنما هو التزام أهلها بالمنهج الذي تمّ بيانه المعرفة أولاً ولفهم نصوص القرآن والسنة ثانياً، ولأصول الاجتهاد وقواعده ثالثا.

فكل من التزام بهذا المنهج فقد دخل في دائرة هذه الوحدة التي عنون لها ب:

أهل السنة والجماعة، وإن عاش في القرن الأخير من عمر الدنيا .

وكل من لم يلتزم به فقد خرج عن دائرة تلك الوحدة الجامعة، وإن عاش في أول قرن من عمر الإسلام.

فقد ثبت إذن أن التمذهب بالسلفية الذي يحتل في تصور كثير من الناس اليوم محل ذلك الميزان الجامع، لم يكن معروفاً لدى أهل السنة والجماعة من السلف الصالح في القرون الثلاثة المباركة الأولى، ولم يكن هذا الانضواء تحت شعاره ليخطر منهم على بال .

ثم إن الأمر استمر على النهج الذي أوضحنا، خلال القرون التالية من بعد .

فقد كان أهل تلك القرون ما بين ملتزم في فهمه وسلوكه الإسلامي بالمنهج المذكور، مقتدياً في ذلك بمن قد سبقه من أهل السنة والجماعة؛ وشارد في فهمه أو سلوكه عن ذلك المنهج بشكل كلي أو جزئي.

فكان الفريق الأول منضوياً، على مر القرون تحت جماعة المسلمين التي تشكل السواد الأعظم من الأمة الإسلامية في كل عصر، والتي تلقب بأهل السنة والجماعة، وكانت الفرق الأخرى خارجة عنها على تفاوت في مسافة البعد فيما بينها، حسب مدى شذوذها عن أصول المنهج المتفق عليه.

ولم نعلم أن في أهل هذه القرون الغابرة كلها، من قد استبدل بهذا المنهج الذي كان ولا يزال فيصل ما بين أهل الهداية والضلال، التمذهب بمذهب يسمى السلفية، بحيث يكون

الانتماء إليه هو عنوان الدخول في ساحة أهل الهداية والرشاد، وعدم الانتماء إليه هو عنوان الجنوح إلى الزيغ والضلالة والابتداع.

ولقد أصغينا طويلاً، ونقبنا كثيراً، فلم نسمع بهذا المذهب في أي من عصور الإسلام الغابرة ولم يأت من يحدثنا بأن المسلمين في عصر ما قد انقسموا إلى فئة تسمي نفسها "السلفية" وتحدد شخصيتها المذهبية هذه بآراء محددة تنادي بها وأخلاقية معينة تصطبغ بها، وإلى فئة أخرى تسمى من وجهة نظر الأولى: بدعية أو ضلالية أو خلفية أو نحو ذلك..

كل الذي سمعناه وعرفناه أن ميزان استقامة المسلمين على الحق أو جنوحهم عنه إنما مرده إلى اتباع المنهج المذكور، مجسداً ومتجلياً في سلوك السلف الصالح رضوان الله عليهم، أو الشرود عنه بشكل ما.

وما اتباع السلف إلا الصبغة العامة لسائر المسلمين، وما معناه إلا الاستضاءة بسلوكهم وعلومهم في فهم هذا المنهج والتمرس على تطبيقه بشكل سليم.

وكما صح للسلف الصالح أن يختلفوا تحت مظلة هذا المنهج المتبع، فلا ريب أنه يصح لمن جاء بعدهم متبعاً لهم ومقتدياً بهم أن يختلفوا تحت تلك المظلة ذاتها كما اختلفوا.

وكما أن اختلاف السلف لم يمزق وحدتهم الإسلامية إلى شطرين: ملتزم وزائغ، فإن اختلاف من بعدهم أيضاً لم يؤثر على وحدتهم الإسلامية، ولم يجعل شطرين: سلفياً وبدعياً.

وهكذا، فقد مر التاريخ الإسلامي بقرونه الأربعة عشر، دون أن نسمع من أي من علماء وأئمة هذه القرون أن برهان استقامة المسلمين على الرشد يتمثل في انتسابهم إلى مذهب يسمى بالسلفية، فإن هم لم ينتموا إليه ويصطبغوا بميزاته وضوابطه فأولئك هم البدعيون الضالون.

إذن، فمتى ظهرت هذه المذهبية التي نراها بأم أعيننا اليوم، والتي تستثير الخصومات والجدل في كثير من أصقاع العالم الإسلامي، بل تستثير التنافس والهرج في كثير من بقاع أوربا، حيث يقبل كثير من الأوروبيين على فهم الإسلام ويبدون رغبة في الانتساب إليه؟

لعل مبدأ ظهور هذا الشعار: "السلفية" كان في مصر، إبان الاحتلال البريطاني لها، وإيام ظهور حركة الإصلاح الديني التي قادها وحمل لواءها كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده: فلقد اقترن ظهور هذه الحركة بارتفاع هذا الشعار.

ويعود السبب في ذلك إلى واقع مصر آنذاك.

فقد كانت على الرغم من وجود الأزهر وعلمائه، والحركة العلمية الناشطة في أرجائه، بل في أرجاء مصر كلها، كانت على الرغم من ذلك مثابة لكثير وأنواع شتى من البدع والخرافات التي أخذت تكثر وتتنامى في أرجائها، وفي أطراف الأزهر نفسه، باسم التصوف وتحت حماية كثير من الطرق الصوفية التي لا أصل لها في الدين ولا تدخل إلا في باب الشعوذة والعته آناً، واللهو والمرح والإباحية آناً آخر.

أما في داخل الأزهر نفسه فقد تحولت أنشطته العلمية إلى رسوم شكلية جامدة باهتة، وغدت مجرَّد مماحكات لسانية وصيغ وعبارات متوارثة مأثورة، لا علاقة لها بالحياة ولا صلة لها بواقع الناس.

ولم يكن الأزهري منبتّاً عن المجتمع فقط، بل لم يكن يشعر أيضاً بأنه يحمل رسالة إصلاح أو تغيير، هذا عدا عن الأوساخ التي كانت تفيض بها أماكن الجامع الأزهر وأروقته وصحنه والأزقة المحيطة به، مما يبعث الاشمئزاز في النفوس والكراهية في القلوب.

ولقد كان الناس أمام هذا الواقع المشين فريقين اثنين: فريق يرى الانضمام إلى ركب الحضارة الغربية والتخلص من بقايا القيود والضوابط، بل حتى الأفكار الإسلامية، وفريق يرى إصلاح أمر المسلمين، بإعادتهم إلى الإسلام الصحيح النقي عن سائر الخرافات والبدع والأوهام، وبإطلاق الإسلام عن عزلته التي فرضها عليه كثير من شيوخه الأزهريون، وربطه بعجلة الحياة الحديثة والبحث عن سبل التعايش بينه وبين الحضارة الوافدة.

ولقد كل من الشيخ محمد عبده والشيخ جمال الدين الأفغاني يمثلان طليعة هذا الفريق الثاني، وكانا لواء الدعوة إلى الإصلاح بجد وصدق.

ونظراً إلى كل دعوة إصلاحية ينبغي أن يرتفع لها شعار معين بين الأوساط، تتجدد في حقيقته ومعناه، بحيث ينجذب الناس عن طريقه إليها، فقد كان الشعار الذي رفعه أقطاب هذه الحركة الإصلاحية وهو "السلفية" وكان يعني الدعوة إلى نبذ كل هذه الرواسب عكرت على الإسلام طهره وصفاءه، من بدع وخرافات وتقوقعٍ في أقبية العزلة وبعده عن الحياة، بحيث يعود المسلمون إلى فهمهم للإسلام واصطباغهم به إلى عهد السلف الصالح رضوان الله عليهم، اقتداءً بهم وسيراً على منوالهم.

وقد كان المعنى الذي يلحون عليه في الرجوع إلى عهد السلف وسيرتهم، هو التخلص من البدع والأوهام والخرافات التي تكاثفت من بعدهم ثم رسبت واستقرت في قاع أكثر المجتمعات الإسلامية وفي مختلف البلدان، التي تعبر عن حقيقة الإسلام في كل عصر بشعار آخر غير كلمة "السلف" أو "السلفية".

وهل ثمة شعار ألصق بهذه المعاني وأصدق في التعبير عنها من كلمة "الإسلام" ذاتها؟ أعني الإسلام المصفى عن الشوائب الدخيلة والتزايدات الباطلة؟ ولكن طاب لأقطاب تلك الحركة الإصلاحية، أن يستثيروا غيرة الناس على الإسلام، ويهيجوا كراهيتهم للصورة التي انتهى إليها حال أكثر المسلمين، بمقارنة فكرية يعقدونها بين واقع الإسلام والمسلمين في عصره الأول المشرق، وواقعه معهم في هذا العصر القاتم المظلم، ثم أن يجعلوا من ارتباط الاسلام بعصر السلف مناط كل سعادة وتقدم وخير، إذن فقد اختير للسير في تلك الحركة الإصلاحية شعار "السلف" أو "السلفية" بدافع من هذه المقارنة وأملٍ في أن يكون ذا تأثير إيجابي على النفوس التي تظل تنشد أمجاد الإسلام الغابرة، وتعتز ببطولات الرعيل الأول من المسلمين.

في هذ العهد إذن، وللأسباب التي أوضحناها، ولد شعار "السلفية" حيث تبناه ونادى به لأول مرة أقطاب حركة الإصلاح الديني وفي مقدمتهم محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي وأمثالهم.

غير أن هذا الشعار لم يكن يعني آن ذاك مذهباً إسلامياً ينتمي إليه دعاته ورافعو لوائه، كما هو الحال الآن بالنسبة لكثير من الناس؛ وإنما كان عنواناً على دعوة، وتعريفاً بمنهج، وتعبيراً بطريق المفهوم المخالف عن مدى انغماس أكثر الناس في البدع والخرافات، وبعدهم عن الإسلام الذي كان يتحلى به السلف الصالح رضوان الله عليهم.

هذا مع العلم بأن تلك الحركة الإصلاحية على الرغم من اتخاذ شعار السلفية عنواناً لها، فإنه في الوقت الذي حاولت فيه القرب من السلف في زاوية بعينها، وهي التي تتعلق بالبدع والشعوذة والخرافات، ابتعدت عن السلف وأعرضت عن حاله وواقعه بالنسبة لكثير من الزوايا والجوانب الأخرى ولقد كان لحركة الإصلاح الديني هذه أثر كبير في التريج لكلمة "السلف" و"السلفية" في الأوساط الثقافية والاجتماعية العامة، بعد أن كانت كلمةً ذات دلالة محدودة، لا تستعمل إلا في مناسبات علمية ضيقة.

فلقد رأينا في أوائل هذا القرن كيف أخرجت الكلمة من حدودها العلمية الضيقة، وأطلقت عنواناً على مجلات، واختيرت اسماً لمطابع ومكتبات، كالمكتبة والمطبعة السلفية المشهورتين في مصر، والتين كان يديرهما السيد محب الدين الخطيب.

وهكذا لمعت الكلمة في الأوساط وأصبح لها رنين في الأسماع واقترنت بالتمجيد الذي نالته حركة الإصلاح الديني على يد أقطابها المعروفين.

في هذه الفترة كان المذهب الوهابي المنسوب إلى صاحبه الشيخ محمد بن عبد الوهاب "١١١٥- ١٢٠٦هـ / ١٧٠٣- ١٧٩٢م" منتشراً في نجد وبعض أطراف الجزيرة العربية، لعوامل معروفة ليس هنا مجال ذكرها وبيانها.

وقد كان بين المذهب الوهابي هذا والدعوة التي حملها رجال "الإصلاح الديني" في مصر قاسم مشترك، يتمثل في محاربة البدع والخرافات لا سيما بدع المتصوفة، فراجت كلمة السلف والسلفية بين أقطاب المذهب الوهابي، من جراء هذا الجسر الواصل بين هذا المذهب وتلك الحركة، ولقيت هوى في نفوس كثير منهم، في الوقت الذي كانوا يتبرمون بكلمة الوهابية التي توحي بأن ينبوع هذا المذهب _بكل ما يتضمنه من مزايا وخصائص_ يقف عند الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فدعاهم ذلك إلى أن يستبدلوا بكلمة الوهابية هذه، كلمة "السلفية".

وراحوا يروجون هذا اللقب الجديد عنواناً على مذهبهم القديم المعروف، ليوحوا إلى الناس بأن أفكار هذا المذهب لا تقف عند محمد بن عبد الوهاب بل ترقى إلى السلف وأنهم في تدنيهم لهذا المذهب، أمناء على عقيدة السلف وأفكارهم ومنهجهم في فهم الإسلام وتطبيقه وهكذا تحولت الكلمة من شعار أطلق على حركة إصلاحية لترويج لها والدفاع عنها، إلى لقبٍ لقِّب به مذهب يرى أصحابه أنهم دون غيرهم من المسلمين على حق، وأنهم دون غيرهم الأمناء على عقيدة السلف والمعبرون عن منهجهم في فهم الإسلام وتطبيقه.

التمذهب بالسلفية بدعة لم تكن من قبل

وتقول الآن: أما تحديد معالم الأمة الإسلامية الناجية بفضل الله وتوفيقه يوم القيامة، بأنها أهل السنة والجماعة، أو أنها التي يمكن أن توصف بأنه السواد الأعظم في جماعات المسلمين وفرقهم وفئاتهم، فهو تحديد يرجع إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم وبيانه، وإلى التعبير الذي تمّ وصفها به بإجماع من أئمة المسلمين وخيرة السلف الصالح، فإذا عرَّف المسلم اليوم

نفسه بأنه من أهل السنة والجماعة، فهو لم يبتدع لنفسه وصفاً دينياً لا يوجد ما يؤيده في كتاب أوسنة، بل انتسب إلى الجماعة التي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين من بعده بالانضمام إليها، وإنما المحور الجامع لها اتباع كتاب الله والالتزام بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنموذج المقتدى به في ذلك ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأتباعه من بعده.

وأما إذا عرف المسلم نفسه بأنه ينتمي إلى ذلك المذهب الذي يسمى اليوم بالسلفية، فلا ريب أنه مبتدع، ذلك لأن ترجمة كلمة "السلفية" إن كانت تتطابق مع ما تدل عليه كلمة "أهل السنة والجماعة"، فقد ابتدع لجماعة المسلمين اسماً غير الذي أجمع عليه السلف رضوان الله عليهم، وحسب هذه التسمية المبتدعة التي لا داعي لها أنها تثير الاضطراب والشقاق في صفوف المسلمين.

وأما إن كانت لا تتطابق مع مدلولها _ وهذا هو الواقع _ فالابتداع ثابت في الكلمة المخترعة، وفي مدلولها الباطل الذي تثبّت رايته ويعلى شأنه بديلاً عن الحق الذي أجمع عليه السلف من خلال إجماعهم على كلمة "أهل السنة والجماعة".

ثم إن الابتداع ثابت في اتخاذ كلمة "السلفية" هذه، بما تحمله من دلالة مبتدعة، عنواناً على جماعة إسلامية جديدة تقطع من جسم الجماعة الإسلامية العامة الواحدة المصطبغة بشعار "أهل السنة والجماعة" والمتمسكة بمدلوله!

فالسلفي اليوم كل من تمسك بقائمة من الآراء الاجتهادية المعينة، ودافع عنها، وسفّه الخارجين عليها ونسبهم إلى الابتداع، سواء منها ما يتعلق بالأمور الاعتقادية، أو الأحكام الفقهية والسلوكية، وقد تحدثنا بإسهاب عن كثير من هذه الآراء، وأوضحنا أن القول الفصل في حكم من لم يتمسك بها واتبع اجتهادات أخرى بشأنها، إنما هو للمنهج المتفق على اعتماده في تفسير النصوص أو تأويلها، فإن كان من شأن هذا المذهب أن يتسع للأخذ بأكثر من رأي فيها، فالكل مثاب ومأجور، ولا يخرج هذا الخلاف أصحابه عن الدائرة الجماعية الإسلامية الواحدة, وقد رأينا في الباب السابق أن قائمة الآراء الاجتهادية تتكون من شخصية الرجل "السلفي" والتي يعدّها الفيصل القائم بين أهل الرشد والضلال، إنما هي

أحد الاحتمالات التي يقتضيها اتباع المنهج المعتمد والمحكَّم، فيفهم الأدلة والنصوص التي تستند إليها تلك الآراء، وما الآراء التي تقابلها إلا نتيجة الاحتمالات الأخرى.

فكل من حصر الحق في الرأي الذي انتهى إليه، وعدّ صاحب الرأي الثاني مبتدعاً أو زائغاً، على الرغم مما أوضحناه من أن الرأيين نابتان في حقل المنهج المتفق عليه، فهو المبتدع حقاً، وهو المفرق لجماعة المسلمين والمتسبب لإثارة البغضاء فيما بينهم دون أي موجب أو عذر، وهو المتنكب عن إجماع المسلمين إذ أعرض عن المنهج المحكم من قِبَلِ سائر أهل السنة والجماعة في أعمالهم وأفكارهم الاجتهادية.

وهو المنهج الذي جمع شمل فريقين من خيرة رجال السلف الصالح على صراط واحد بعد أن تباعدوا، مدة من الزمن، في طريقين اثنين، أحدهما ما يسمى في طريق أهل الرأي، والثاني ما يسمى بطريق أهل الحديث.

فأصبحت اختلافاتهم في ظل هذا المنهج تعاوناً أخوياً رائعاً في السير الحق وفي السعي للتعرف عليه.

فهؤلاء يعرضون عن هذا المنهج الذي تقيَّد به السلف فكان تقيداً جعل اتفاقهم بفضله واختلافهم على هديه، ويستبدلون به عصبيتهم الذاتية وعنادهم المذهبي، ثم ينعتون كل من خالفهم الرأي بالابتداع والمروق!.. فهل من ابتداع في شرع الله أجلى وأوضح من هذا الابتداع؟!

كنا نصلي العشاء جماعة ذات ليلة، في إحدى البلاد العربية، مع جمع من أهل العلم ورجال الفكر، ورفع أحدنا يده بعد الصلاة يدعو الله عز وجل، وبدأ البقية يؤمنون على دعائه.

فقام أحد الحاضرين ـوكان سلفي المذهبـ وفارق الجماعة كي لا يشهد هذا المنكر ويشترك معنا فيه.

قلت له: ما وجه الحظر في هذا الأمر؟ قال: لم يكن من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء بعد الصلاة، إنما كان يدعو أثناءها!

والأمر الذي نراه مبتدعاً ومستنكراً من هذا الرجل وأمثاله، لا يتمثل في أن يميل إلى الرأي الاجتهادي القائل بأن الدعاء إنما يسن في داخل الصلاة لا من بعدها، فقد وجد من ذهب

إلى هذا الرأي من الأئمة، متأولين حديث سعد بن أبي وقاص الذي رواه البخاري والترمذي أنه كان يعلم بنيه هذه الكلمات كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة، ويقول: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ بهن دبر الصلاة: اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر".

فقد تأولوا كلمة "دبر الصلاة" بآخر الصلاة، قالوا: فكان دعاؤه صلى الله عليه وسلم بهذه الألفاظ في ختام صلاته قبل التسليم.

وذهب الجمهور إلى أن المراد بدبر الصلاة عقب الصلاة، مستدلين على ذلك باللغة، وبحديث أم سلمة الذي رواه أحمد وابن ماجه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا صلى الصبح حين يسلم: (اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً).

أقول: ليس الأمر المبتدع والمستهجن من هذا الرجل، أن يتبع أحد هذين الرأيين الموجودين ضمن دائرة الجماعة الإسلامية الواحدة المتآلفة.

إنما الأمر المبتدع يقيناً أن يختار أحد الرأيين، ثم يجعل اختياره هذا برهان كونه هو الحق الذي يجب المصير إليه، ويجعل من اختيار الآخرين للرأي المقابل، برهان كونهم على الباطل الذي يجب الإقلاع عنه، ثم يقوم فيفارق الجماعة استنكاراً لما هم عليه وتنبيهاً إلى ما يراه من أنهم لا ينتمون إلى الجماعة الإسلامية الناجية التي يجب الانتماء إليها! فأي عالم من علماء السلف سلك هذا المسلك العجيب ومزق وحدة المسلمين وسفّه آراءهم الاجتهادية بهذه العصبية الشنعاء؟

ولكم اتُهمنا واتُهم كثير من المسلمين من أهل السنة والجماعة، بالابتداع والمروق، لأننا ذهبنا إلى ما ذهب إليه الجمهور من علماء السلف وغيرهم، من أنه لا ضير في أن يعزم الرجل على زيارة كلٍ من قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم ومسجده! فهذا الذي ذهب إليه الجمهور، وفي مقدمتهم الحنابلة، باطل يجب اجتنابه، لماذا؟..

لأن رأي جماعة "السلفية" على خلافه.

فمهما كان جماعة المسلمين من يخالفون هذا الرأي، ومهما كان معتَصَمٌ ابن تيمية الذي استند إليه، ضعيفاً بل واهياً في مقياس اللغة والشرع، فإنه يظل مع ذلك هو الرأي الحق، ويظل الرأي المقابل مع ذلك هو الرأي الباطل.

لأن "السلفية" أمضت قرارها الذي لا عودة فيه، ألا وهو أن القصد إلى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعة!

وهكذا، يصبح الاختلاف في هذه المسألة، بعد التي قبلها، بمثابة خنجر يمزق جماعة المسلمين الواحدة ويشطرها إلى شطرين: "السلفية" التي هي وحدها عرفت الحق فالتزمت به. و"البدعية" التي هي المارقة عن الحق والتائهة في أودية الضلال.

وتتأمل في عصر السلف، وتتساءل: من منهم الذي استعمل مثل هذا الخنجر فمزق به شمل المسلمين وفرق جماعتهم، فلا تجد منهم واحداً أقدم على مثل ذلك.

ولقد أصغيت إلى أحدهم يلقي محاضرة في إحدى الندوات، يحدد فيها معالم المذهب السلفي، ويتحدث عن أبرز الشخصيات السلفية في التاريخ، والأفكار السلفية التي تميزوا بها عن غيرهم.

فذكر من هؤلاء الشخصيات أحمد بن حنبل وابن تيمية. وقال إن من أبرز مظاهر سلفية الأول منهما موقفه من مسألة خلق القرآن، وتحمله في سبيل ذلك المحنة التي تحملها.

وقال إن من أبرز مظاهر سلفية ابن تيمية اتجاهاته الفقهية الخاصة التي يتميز بها، ومن أشهرها قوله بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع طلقة واحدة!

فقلت له فيما قلت ــوكان قد عهد إليّ بالتعليق على محاضراته هذهــ: لئن كان الذهاب إلى أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع طلقة واحدة، من مميزات المذهب السلفي، فلا ريب أن الإمام أحمد بن حنبل ليس سلفياً، لأنه أفتى بأن هذا الطلاق يقع ثلاثاً بل إن سائر الأئمة الأربعة ليسوا بسلفيين، لأنهم أجمعوا على أنه يقع ثلاثاً! ولئن كان الموقف الذي اتخذه الإمام أحمد، فجرَّ عليه المحنة التي ساقها وتحمّلها، من مميزات سلفيته، فلا ريب أن الإمام الشافعي الذي كان معاصراً للإمام أحمد لم يكن سلفياً. لأنه لم يقف معه ذلك الموقف.

ولقد علمنا جميعاً أن أهل السنة والجماعة كلهم متفقون على أن كلام الله تعالى غير مخلوق ولا حادث، وفي مقدمتهم الأئمة الأربعة، وإنما كان سبب المحنة التي تعرض لها الإمام أحمد

دون غيره، وهو ورعه الشديد الذي منعه من أن يفصّل ويفرِّق بين اللفظ والمعنى، وأن يأتي بتشقيق وتقسيم قد يثير التباساً في أذهان بعض العامة، فينسبون إليه أو يفهمون منه ما ليس بحق، فيتحمل أوزارهم يوم القيامة، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، شأنهم كشأن التابعين من بعدهم، يتفاوتون في درجة الحيطة والورع، وما كان لهذا التفاوت أن يجعلهم شيعاً وجماعات وأحزاب.

لقد اتضح إذن، أخي القارئ، بما لا يدع مجالاً للريب، أن "السلفية" مذهب جديد مخترع في الدين، وأن بنيانه المتميِّز قد كونه أصحابه من طائفة من الآراء الاجتهادية والأفكار الاعتقادية والأحكام السلوكية، انتقوها وجمعوها من الآراء الاجتهادية كثيرة مختلفة قال بها كثير من علماء السلف وخيرة أهل السنة والجماعة، اعتماداً على ما اقتضته أمزجتهم وميولاتهم الخاصة بهم ثم حكموا بأن هذا البنيان الذي أقاموه من هذه الآراء المختارة من قبلهم، وبناء على أمزجتهم وميولاتهم، هو دون غيره البنين الذي يضم الجماعة الإسلامية الناجية والسائرة على هدي الكتاب والسنة، وكلٌ من تحول عنه إلى آراء واجتهادات أخرى فهم مبتدعون تائهون! أفليس هذا الحكم المبتدع الذي لم يأذن به قرآن ولا سنة، ولا سابقة له في أي من عهود السلف أو الخلف، من أشنع مظاهر البدع الدخيلة على الدين؟.. ولعمري، لئن لم يكن هذا كله ابتداعاً في الدين، فما هو المعنى المتبقي للبدعة إذن، وفي أي مثال أو مظهر يبرز ويتجسّد؟! هذا كله بقطع النظر عن الأثار الضارة المتنوعة التي تنتشر في جسم المجتمع الإسلامي، من جراء هذه البدعة التي تتنامى في حقل العصبية النفسية وما نسميه بالأنانية الجماعية.

وهذا ما سنشرع في بيانه ونختم به هذا الباب الأخير.

الآثار الضارة اللاحقة بالأمة الإسلامية

من جراء هذه البدعة

مقدمة:

هذه الآثار الضارة، معروفة وكثيرة، والحديث عن الآثار المستشرية لهذه الآثار حديث طويل ذو شجون.

وقد فكرت يوماً ما في جمع هذه الآثار مع بيان نتائجها المتنوعة الكثيرة، وأبعادها الدينية والاجتماعية والإنسانية المختلفة، في كتاب مستقل.

ولكني رأيت أن هذه الآثار ـعلى جسامتها وخطورة نتائجهاـ من المستلزمات الحتمية لنشأة هذا المذهب وانتشاره، وتصور شريعته، فلا للتنبيه إلى سوائها وخطورتها، إلا من خلال التنبيه إلى الابتداع الكامن في ذات هذا المذهب على النحو الذي تم بيانه في الفصول السابقة.

فعندئذ يكون لفت النظر إلى هذه الآثار عملاً مفيداً، بل يكون تأكيداً على ما عرفناه من المعنى البدعي الكامن في شعار هذا المذهب وما ينطوي عليه من عصبية لحقيقة "الأنا" الاجتماعية المتمثلة في أشخاص أو جماعة هذا المذهب، وقد عرفنا من أوليات الدراسة النفسية أن الأنانية التي جاء الإسلام بذمها والتحذير منها ليست كامن في كيان الفرد الإنساني وحده، بل هي تكمن بالمعنى ذاته والخطورة نفسها ـبل ربما أسدـ في كيان الفئة والجماعة، عندما تتكوّن هويتها من نسيج أفكار وفلسفة واتجاهات معينة.

فإن هذه الهوية تغدو تربة صالحة لانبثاق أنانية جماعية منها، الشأن فيها أن تكون في غاية العتو والخطورة، والتأثيرات السلبية الضارة على المجتمع الإسلامي.

ومحال أن تذوب هذه الأنانية إلا في ضرام الإخلاص لدين الله والالتزام بشرعه المطهر، مع أخذ النفس ـعلى دوام الاستمرارـ بمبادئ التزكية وأسبابها، كما أمر الله عز وجل، وعلى النحو الذي رسم وبيّن.

أما وقدتم بيان المعنى البدعي في هذا الشعار وفي تكوين جماعة إسلامية جديدة على أساسه على نحو جلي لا يمتري فيه إلا من تغلبت عليه أنانيته الفردية أو الجماعية، فإن لفت

النظر إلى الآثار الضارة اللاحقة من جرائه بكيان المجتمع الإسلامي، يكون مفيداً، ويأتي دعماً أو تأكيداً لما قد تم بيانه.

ولسوف أكتفي بذكر بعض هذه الآثار، فربما كان في ذلك غناء عن الإطناب والاستقصاء. ولسوف أقتصر من ذلك على أمرين فقط:

الأمر الأول: الأذى المتنوع البليغ الذي انحط في كيان المسلمين من جراء ظهور هذه الفتنة المبتدعة، فلقد أخذت تقارع وحدة المسلمين، وتسعى جاهدة إلى تبديد تآلفهم وتحويل تعاونهم إلى تناحر وتناكر.

وقد عرف الناس جميعاً أنه ما من بلد أو قرية في أي من أطراف العالم الإسلامي، إلا وقد وصل إليها من هذا البلاء شظايا، وأصابها من جرائه ما أصابها من خصام وفرقة وشتات.

بل ما رأيت أو سمعت شيئاً من أنباء هذه الصحوة الإسلامية التي تجتاح اليوم كثيراً من أنحاء أوروبا وأمريكا وآسيا، مما يثلج الصدر ويبعث على البشر والتفاؤل، إلا ورأيت أو سمعت بالمقابل من أخبار هذه الفتنة الشنعاء التي سيقت إلى تلك الأوساط سوقاً، ما يملأ الصدر كرباً ويزج المسلم في ظلام من الخيبة الخانقة والتشاؤم الأليم.

كنت في هذا العام المنصرم ١٤٠٦هـ واحداً ممن استضافتهم رابطة العالم الإسلامي للاشتراك في الموسم الثقافي، وأتيح لي بهذه المناسبة أن أتعرف على كثير من ضيوف الرابطة الذين جاؤوا من أوروبا وأمريكا وآسيا وإفريقيا، وأكثرهم يشرفون في الأصقاع التي أتوا منها على مراكز الدعوة الإسلامية أو يعملون فيها.

والعجيب الذي لا بد أن يهيج آلاماً ممزقة في نفس كل مسلم أخلص لله في إسلامه، أنني عندما كنت أسأل كلاً منهم عن سير الدعوة الإسلامية في تلك الجهات، أسمع جواباً واحداً يطلقه كل من هؤلاء الإخوة على انفراد، بمرارة وأسى، خلاصته: المشكلة الوحيدة عندنا هي الخلافات والخصومات الطاحنة التي تثيرها بيننا جماعة السلفية..

ولقد اشتدت هذه الخصومات منذ بضع سنوات، في مسجد واشنطن، إلى درجة ألجأت السلطات الأمريكية إلى التدخل، ثم إلى إغلاق المسجد لبضعة شهور!

ولقد اشتدت هذه الخصومات ذاتها واهتاجت، في أحد مساجد باريس، منذ ثلاثة أعوام، حتى اضطرت الشرطة الفرنسية إلى اقتحام المسجد.

والمضحك المبكي بآن واحد، أن أحد أطراف تلك الخصومة أخذته الغيرة الحمقاء لدين الله ولحرمة المساجد، لما رأى أحد الشرطة داخلاً المسجد بحذائه، فصاح فيه أن يخرج أو يخلع حذائه.

ولكن الشرطي صفعه قائلاً: وهل ألجأنا إلى اقتحام المسجد على هذه الحال غيركم أيها السخفاء؟!..

وفي إحدى الأصقاع النائية، حيث تدافع إمة من المسلمين الصادقين في إسلامهم على وجودها الإسلامي، وعن أوطانها وأراضيها المغتصبة، تصوّب إليهم من الجماعات السلفية سهام الاتهام بالشرك والابتداع، لأنهم قبوريون وتوسُّليون، ثم تتبعها الفتاوى المؤكدة بحرمة إغاثتهم بأي دعم معنوي أو عون مادّي! ويقف أحد علماء تلك الأمة المنكوبة المجاهدة، ينادي في أصحاب تلك الفتاوى والاتهامات: يا عجباً لأخوة يرموننا بالشر، مع أننا نقف بين يدي الله في اليوم خمس مرات، نقول: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)!... ولكن النداء يضيع ويتبدد في الجهات، دون إي متدبر أو مجيب! إنا لاشك في أن هؤلاء الأخوة السلفيين، متفاوتون في هذه المواقف المؤسفة المريرة، وربما كان فيهم من يتألم من هذه التصرفات العجيبة كألمنا بل أشد... ولكن ما الفائدة؟ وماذا عسى يغني مثل هذا الألم، بعد إضفائهم الشرعية على هذه البدعة من حيث هي، وقد علمنا أنه أمر مستحدث في الدين لم يعرف في عصر السلف ولا الخلف، وأنها لا تفعل في كيان المجتمع الإسلامي أكثر من أن تمزقه إرباً، ثم تجعل بعضه عدواً لبعض.

إن استنكار هذه الرعونات الشنيعة، لا يكون إلا بمعالجتها، ولا تكون معالجتها إلا بسدّ الباب الذي اقتحمت منه، وإنما الباب الذي اقتحمت منه هو الإقدام على اقتطاع جماعة مستقلة من جسم الجماعة الإسلامية الواحدة، واختراع اسم مبتدع لها، ثم تغذية روحها العصبية وأنانيتها الجماعية بمقومات معينة وأساليب وأخلاقيات مميزة، تدافع بها عن كيانها الذاتي، بل تتخذ من هذا الاسم سلاحاً لمقاومة الآخرين وطعنهم دون هوادة إذا اقتضى الأمر.

فاستنكار هذه الرعونات إنما يكون بإغلاق هذا الباب لا يعنى بالضرورة تخلي هؤلاء الإخوة عن آرائهم ومذاهبهم الاجتهادية، التي انتهوا إليها واقتنعوا بها.

بل المطلوب منهم بمقتضى أصول الشرع وقواعده أن يتمسكوا بما انتهت إليه جهودهم الاجتهادية الصحيحة، ولا يسعهم إلا ذلك.

وأنا شخصياً مقتنع بكثير من تلك المذاهب والآراء آخذ نفسي بها وأدافع عنها بما أملكه من الحجج والبراهين العلمية.

ولكن المطلوب إنما هو التمسك بهذه الآراء والدعوة إليها ضمن نطاق الجماعة الإسلامية الواحدة التي يحدها إطار واحد هو إطار أهل السنة والجماعة، ثم المطلوب إعذار أصحاب الآراء والمذاهب المخالفة، ما دامت المسائل بحد ذاتها مسائل اجتهادية لا ينحصر وجه الدليل عليها في جانب دون آخر.

وقد أوضحنا في الباب الأول والثاني الضوابط التي تعرف بموجبها المسائل والموضوعات الاجتهادية وتستبين متميزةً بها عن المسائل القطعية التي لا مجال للاجتهاد فيها، وقد عرفنا أن مرد هذه الضوابط إلى القواعد الأساسية المعروفة في علم أصول الفقه وهي التي تسمى اليوم بقواعد تفسير النصوص؛ وذكرنا لذلك أمثلة تطبيقية شتى وتلك هي سيرة المسلمين الملتزمين بهدي الكتاب والسنة من قبل، فقد كانوا يجتهدون ويتناقشون في المسائل الاجتهادية من قضايا الدين وأحكامه، ثم كانوا يختلفون في بعض منها ويتفقون في البعض الآخر، دون أن تخرجهم اختلافاتهم الاجتهادية من نطاق الجماعة الاسلامية الواحدة، ودون أن تتخذ أي فئة منهم من آرائها الاجتهادية التي انتهت إليها وأخذت بها، قالباً تستولد منه، وعلى قدره، جماعة إسلامية جديدة، ثم تطلق عليها اسماً مبتكراً جديداً، ثم تنشئ بينها وبين بقيت المسلمين من أهل السنة والجماعة معركة طاحنة تستخدم فيها أسلحة التكفير والتبديع والتشريك.

أجل، لقد قرأنا سيرة سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، ورجعنا الكرة تلو الكرة نقرأ ونتدبر فلم نجد منهم من أقدم على شيء من ذلك كله.

وأقول "سلفنا الصالح" احترازاً عن فئات متفرقة ظهرت خلال تاريخ الإسلام ندَّت عن صراط الله تعالى وشذَّت عن أوامره وأحكامه، فنثرت بين المسلمين على اختلافهم تهم التفكير والتضليل، كالخوارج، ومن سار على شاكلتهم.

ولكن الإجماع منعقد قبل هذه الفئات وبعدها، على أنها قد خرجت بذلك عن قواعد الشرع وأصوله وأهم ما هو معروف ومتفق عليه من مبادئه وأحكامه.

فلا يقتدى بهم ولا يعول على شذوذهم.

الأمر الثاني: ما هو معروف من أن أولي الفكر اليساري، رأوا في ظهور جماعة جديدة في المسلمين يسمون أنفسهم بالسلفية، مرتعاً خصباً، ومادّةً غنية في مجال تحليلاته الماركسية الجدلية لتاريخ والتراث.

إذ أن حركة التاريخ، أيٍّ كان، تحكمها في قانون المادية الجدلية الصيرورة المستمرة، ويعنون بها الحركة المتوالدة من الذات.

فالتاريخ العربي المتمثل في العصر الجاهلي ثم البعثة النبوية، فالفتح الإسلامي، فالخلافة الراشدة، فالعصر الأموي. إلخ..

إنما هو صيرورة دائمة، تتمثل في تجاوز التاريخ ذاته متجهاً إلى طور إنساني واجتماعي أتمّ.

فهو تاريخ أصيل مستمر، بمعنى الترابط والتواصل الكامنين في سلسلة أطواره وأحداثه المتلاحقة، وهو تاريخ حديث معاصر، بمعنى كونه يحتضن في كل عصر ما يناسبه من القيم والتوجهات والأحداث.

وهذا التصور الذي يسقطونه على حركة التاريخ، هو بذاته التصور الذي يحللون على أساسه التراث.

والتراث عندهم يشمل القرآن والسنة وما انبثق عنهما من العلوم والمدونات الإسلامية.

غير أن انطباق هذا التصور الجدلي على حركة التاريخ الإسلامي، يتطلب شرطاً أساسياً يلحّ عليه أئمة المادية الجدلية وأنصارها، وهو صراع المتناقضات داخل الأحداث التاريخية.

فالصيرورة المستمرة نتيجة لتناقضات المستمرة التي لا بدّ من وجودها كشرط لدوام التطور الذي هو سمة التاريخ وشأنه الذي لا ينفك عنه.

ولكن أين هي المتناقضات المتصارعة في تضاعيف التاريخ الإسلامي، بعد استقرار الفتوحات، وهدأة المجتمعات الإسلامية، وانكبابها في تعاون منقطع النظير على الإصلاح والبناء؟ لقد فتش منظرو المادية الماركسية الجدلية عن ظاهرة التناقض المطلوبة هذه، ليفسروا بها حركة التاريخ الإسلامي ويخضعوها لتصوراتهم المادية التي هي في نظرهم المحرك الأول

والأخير للتاريخ البشري، وطال بهم التفتيش... إلى أن عثروا أخيراً على مطلبهم الثمين الذي يمكن أن يحل لهم المعضل وأن يخرجهم من زاوية الحرج.. إنه النزعة السلفية التي تشكل العصب التناقضي الممتد_ في تصورهم_ منذ فجر الإسلام إلى هذا اليوم، والذي من شأنه أن يهيج الصراع مع الأفكار الإسلامية المتسامحة المرنة.. إنه مظهر الصراع الحتمي بين القديم والحديث.

قالوا: فالتاريخ الإسلامي حوى منذ أول بزوغه نزعتين متناقضتين: إحداهما تتمثل في المحافظة على القديم والتصلب عند الرسوم الشكليات الجامدة الموروثة، والأخرة تتمثل في تقبل الجديد وهضمه وتطوير الحياة وفقاً للطموحات والحاجات الإنسانية المتجددة، ومن الصراع المستمر فيما بينهما تفجرت الحركة التاريخية وفق قانونها الحتمي، وتكونت الحضارة الإسلامية، ثم تنامت واتخذت مظاهرها وأشكالها المعروفة اليوم! شيء رائع حقاً هذا الذي عليه منظِّرٌ المادية الماركسية، بفضل مبتدعي المذهب السلفي، بل بالتعاون فيما بينهم! وهو وإن لم يكن تعاوناً مبرمجاً مقصوداً، ولكنه تعاون واقعي متناسق.

فلقد كان على السلفية أن يبتدعوا هذا اللقب والمضمون والجماعة، ويقحموه إقحاماً في مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي.

وكان على دعاة المادية الجدلية أن يسرعوا فيصبغوا التاريخ الإسلامي كله منذ أول بزوغه بهذه البدعة الطارئة، ثم أن يقفوا يشرحون للناس، في زهو وشعور بالانتصار, كيف تكون الفكر الإسلامي مع حصيلته الحضارية من صراع الظروف والمصالح البشرية المتناقضة، وكيف أن الصراع "التاريخي" بين المذهبين السلفي والانفتاح لم يكن إلا الأداة المادية الحتمية لهذه الصيرورة التاريخية المستمرة!

ولكم قرأنا كتابات مطولة ومختصرة صيغت لتجسيد هذا الخيال وبث نبضات الحياة والحقيقة في تضاعيفه، معتمدة على هذه البدعة المستحدثة التي لا يحتاج الباحث إلى كثير من الثقافة والدراية الإسلامية ليعلم علم اليقين أن ليس لها أي جذور ثابتة لا في الماضي القريب ولا البعيد من تاريخ هذه الأمة، أو تاريخ التشريع الإسلامي.

إلا أن هذه الحقيقة مهما كانت ناصعة الوضوح، فإن هذه الجماعة_ بما استحدثته من هذا الذي ذكرناه_ ساهمت مساهمة فعالة في تكوين موجبات اللبس، وفي تمكين المبطلين والعابثين

بالحقائق والتاريخ، من مد الغاشية من الأوهام الداكنة على تاريخ الفكر بل التشريع الإسلامي، أمام أعين البسطاء والسُذَّج من الناس على أقل تقدير.

والمصيبة الفادحة أن معظم هؤلاء الإخوة الذين يميزون أنفسهم عن عامة المسلمين بشارة السلفية لا يقرؤون.. ولا يحركون عقولهم وأفكارهم إلا في دائرة الفكر "السلفي" التي حصروا أنفسهم وعقولهم فيها.. لذا فهم في غفلة تامة عما يفعله المبطلون من ورائهم، وعن استغلالهم لأفكارهم وشعاراتهم المبتدعة، والانطلاق منها إلى تشويه حقائق إسلامية، وإبراز التاريخ الإسلامي ضمن الإطار الذي يرغبون! على أن استغلال أولئك المبطلين لهذه البدعة وما يستتبعها من الذيول، لا يقف عند هذا الحد.

بل يتجاوزه إلى اعتبارها برهاناً على أن الإسلام ليس له وجود موضوعي مستقل عن الفكر الإنساني، وإنما هو حصيلة أفكار إنسانية تصارعت وتلاحقت ثم وضعت في هذا الإطار الديني المقدس.

لا أدل على ذلك _في نظرهم طبعاً_ من الصراع المشاهد بين أول النزعة السلفية الذين يلحون على أن الإسلام الأزلي المقدس إنما يتمثل في الآراء والشروح التي يفهمونها ويتبنونها للنصوص، والآخرين الذين يخالفونهم في ذلك ولا يقيمون لآرائهم وشروحهم وزناً.. إذن فالقاسم المشترك بينهم هو لجوء كل من الطرفين إلى ما يبصِّر فكرهم الإنساني القائم على الطبيعة والنوازع البشرية المتفاعلة مع الحياة وظروفها المتبدلة!.. وهذا هو كل الإسلام في واقعه وتاريخه! والرد العلمي الوحيد الذي لا نملك غيره مع الأسف, على هذا الاستغلال والتشويه هو التأكيد بأن هذا الشعار المذهبي بكل ما يتضمنه من مقومات ومميزات، أمر مبتدع في الإسلام، طارئ على أصوله الثابتة وتاريخه الطويل؛ وما أكثر ما طرأ عليه من شوائب وعوارض على امتداد تاريخه الناصع المجيد.

فلم تستطع الشوائب والعوارض الدخيلة أن تصطبر به وتمتزج فيه، وبقيت الشوائب شوائب واضحة معروفة، كتلك النباتات الطفيلية التي كثيراً ما نراها ممتدة متعرجة بين الأشجار الراسخة الباسقة.

ثم التأكيد بأن ينبوع هذا الدين إنما يكمن في نصوصه التي ثبت بالبرهان العلمي أنها حصيلة الوحي الإلهي لا الفكر البشري، وبأن فهم نصوصه تلك إنما هورهن بالمنهج الذي يتمثل في قواعد التفسير النصوص.

وهي قواعد عربية حيادية إليها المرجع في تبيين المعنى المراد تحديده فما اتفق عليه العلماء من أحكام تلك النصوص ومعانيها إلاّ لأن المنهج الذي اقتضى ذلك واضح بيّن لا غموض فيه، وما اختلف فيه العلماء منها، إلاّ لأن المنهج المعتمد في ذلك محل بحث ونظر من علماء العربية والبيان أنفسهم.

وأمام هذا الميزان الوحيد لفهم النصوص وكيفية العمل بها يذوب هذا الوجود الوهمي المبتدع للتشنجات السلفية وغيرها.

ولا يبقى أي مبرر للارتماء في أيّ من طرفي الإفراط أو التفريط.

ولعلك يا أخي القارئ تذكر أنا أوضحنا هذه الحقيقة الموضوعية بجلاء وتفصيل في كل من الباب الأول والثاني من هذا الكتاب. وإن في ذلك لمعتصماً لمن أراد أن يتَّقي بعقله الموضوعي الحر لغو واستغلال العابثين بدين الله عز وجل والكائدين له، من دعاة المادية والجدلية وغيرها.

بل إن فيما أوضحناه آنذاك حتى للمتورطين في الأفكار المادية الإلحادية، الذين ربما أوقعتهم البدعية "السلفية" في اللبس فعلاً، وتصوروا أنه صراع فكري قديم في تاريخ الفكر الإسلامي، وأنه المصدر الوحيد لما يتضمنه الإسلام من مبادئ وأحكام وأصول، وأن الإسلام إذن ليس إلا مجموع ما أفرزته الصراعات الفكرية على طول التاريخ العربي الإسلامي، على غرار ما هو مشاهد وثابت اليوم.

أجل، إن في الرجوع إلى البابين الأول والثاني من هذا الكتاب، وتدبر ما قلناه فيهما بموضوعية ونزاهة فكرية تامة لمعتصماً لكلا هذين الفريقين عن الاضطراب والتطوح في الأوهام والتصورات الجانحة

والله هوالموفق والمستعان.

المصدر: كتاب السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي